

المصادر النقلية والعقلية في توجيه القراءات القرآنية
في كتاب معاني القرآن وإعرابه للزجاج (ت: 311هـ)

Transmitted and rational sources in guiding the Qur'anic readings in the
Book of Meanings of the Qur'an and its expression for al-Zajjaj (311 AH)

بوسعيد جميلة جامعة الجيلالي ليابس boussaidajamila5@gmail.com	صحراوي محمد* جامعة الجيلالي ليابس sah.moh1986@gmail.com
---	---

تاريخ الوصول: 2021-06-17 تاريخ القبول: 2021-12-25 تاريخ النشر: 2022-05-13

ملخص:

يهدف البحث إلى الكشف عن طريقة تعامل عالم من علماء القراءات واللغويات مع النص القرآني في توجيه قراءاته، وإلى معرفة ما استعان به على ذلك من الأدلة النقلية والعقلية. ويحاول البحث الإجابة عن إشكالية محورية تتمثل في السؤال الآتي: ما هي المصادر النقلية والعقلية التي اعتمدها الزجاج في توجيه القراءات القرآنية في كتابه المعاني؟ ولقد اتضح من خلال البحث أنّ الجمع بين النقل والعقل من أسس منهج الزجاج التي تميز بها، فتارة نجده يخرج الآية بناء على معنى آية أخرى أو حديث نبويّ وربما استأنس إلى بيت شعريّ، وإذا لم يجد من هذا ما يمكن أن يكون جواباً اعتمد على التحليل اللغويّ الذي اصطلح عليه البحث بالدليل العقلي. الكلمات المفتاحية: الزجاج؛ النقل؛ العقل؛ القراءات القرآنية؛ التوجيه.

Abstract:

The research aims to reveal how a scholar of readings and linguistics deals with the Qur'anic text in guiding his readings. It also aims to find out what are the transmitted and rational evidences he used. The research attempts to answer a central problem: What are the transmitted and rational sources that al-Zajjaj has adopted in guiding the Qur'anic readings in his book "Al-maani".

It has become clear from the research that the combination of transmission and reason is one of the foundations of al-Zajjaj method that distinguishes him. Sometimes, he produces a verse based on the meaning of another verse or prophetic hadith. In other times, he uses a poetic verse and if he does not find an answer, he relies on the linguistic analysis that the research has come to with rational evidence.

Keywords: transmission; reason; Qur'anic readings; guidance.

1. مقدمة:

كتب معاني القرآن وإعرابه من أهم كتب العربية؛ إذ عني أصحابها بأرقى نص، وبالأساس الكشف عن معانيه الدقيقة، والوقوف على تعدد قراءاته ورواياته المتواترة، لذا فإن معرفة مناهج أصحابها في التعامل مع هذا النص المقدس، ومصادر هذا التعامل أمر لا مفر منه.

ومن المعلوم ضرورة أن توجيه القراءات القرآنية والاحتجاج لها يعتمد على آليات نقلية وعقلية، وهذا لم يخف عن الزجاج في كتابه "معاني القرآن وإعرابه"، لذا يسعى هذا البحث إلى الجواب عن إشكالية مفادها: ما هي المصادر النقلية والعقلية التي اعتمدها الزجاج في توجيه القراءات القرآنية في كتابه المعاني؟ ولإجابة عن هذا التساؤل اتبعنا سبيلاً في البحث هو كالآتي:

2. بين القرآن والقراءات:

2-1- القرآن: هو كلام الله تعالى الذي أنزله على نبيه -صلى الله عليه وسلم- كتاباً وقرآناً وفرقانا، ومعنى القرآن هو الجمع، وسمي قرآناً لأنه يجمع السور فيضم بعضها ببعض. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة، 17]، أي جمعه وقراءته، قال ابن منظور: القرآن مصدر كالغفران والكفران، يقال: فلان قرأ يقرأ قراءة وقرآناً⁽¹⁾، «ثم صار علماً شخصياً لذلك الكتاب الكريم، وهذا هو الاستعمال الغالب»⁽²⁾.

فكلمة قرآن تحمل معنيين لغويين هما: الجمع والقراءة، وهي في الأصل مصدر ثم صارت علماً للكتاب المنزل على محمد -صلى الله عليه وسلم-.

وفي اصطلاح الأصوليين هو: «الكلام المعجز المنزل على النبي -صلى الله عليه وسلم-، المكتوب في المصحف، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته»⁽³⁾.

2-2- القراءات:

2-2-1- لغة: تعني القراءات عند اللغويين: «الجمع والضم، وهي مصدر؛ يقال: قرأ فلان قراءة»⁽⁴⁾.

2-2-2- اصطلاحاً: القراءات في اصطلاح علماء القراءات لها حالتان، حالة لا تتعلق بالتفسير، وحالة تتعلق بالتفسير أما الأولى: فهي اختلاف القراء في أوجه النطق بالحروف والحركات، كالممدود ومقاديرها، والتسهيل والتخفيف وغيرها، ومزية هذه الحالة هي الحفاظ على كيفية نطق مخارج الحروف وصفاتها كما نطقت بها العرب. وأما الثانية: فهي اختلاف القراء في حروف الكلمات، مثل قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الفاتحة، 03]. وقرئت (مَلِكٍ)، وكذلك اختلاف الحركات الذي يختلف معه معنى الفعل؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ

مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿[الزخرف: 57]﴾. قرأها نافع بضم الصاد، وقرأها حمزة بالكسر (يَصِدُّونَ)⁽⁵⁾، «فالأولى بمعنى يُعرضون عن الحق بالجدل بحجة داحضة واهية، وقيل يثبتون على ما كانوا عليه من الإعراض، وقال الكسائي (ت: 189هـ) والقرءاء (ت: 207هـ): يَصِدُّون بالكسر ويَصِدُّون بالضم لغتان بمعنى واحد مثل يعرِشون ويعرِشون ومعناها يضجّون، وجوّزا أن يكون يعرضون»⁽⁶⁾، فمعنى يعرضون حاصل من كلا الصيغتين، وهذا يدلّ عليه قول الألوسي (1270هـ)، (وجوّزا أن يكون يعرضون).

فهذه هي الجهة التي لها مزيد التعلّق بالتفسير؛ لأنّ ثبوت أحد اللَّفظين في قراءة قد يبيّن المراد عن نظيره في القراءة الأخرى، أو يثير معنى غيره؛ ولأنّ اختلاف القراءات في ألفاظ القرآن يُكثّر المعاني في الآية الواحدة⁽⁷⁾، ولهذا كانت عناية المفسّرين بالقراءات في موضوع التّرجيح شديدةً.

بين القرآن والقراءات: ذكر صاحب الإتحاف ما نصّه: «والقرآن والقراءات: حقيقتان متغايرتان، فالقرآن هو: الوحي المنزل للإعجاز، والبيان. والقراءات اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في الحروف، أو كيفيّتها من تخفيف وتشديد وغيرها»⁽⁸⁾.

ومن علماء القراءات المعاصرين من يجعل القرآن والقراءات بمعنى متّحد، مستدلّين على ذلك بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ قُرْآنَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: 18]؛ أي قراءته. وبالأثر عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبي بن كعب -رضي الله عنه- أنّ النبي -صلّى الله عليه وسلّم- كان عند أضاءة بني غفار، فأثاه جبريل عليه السلام فقال: «إنّ الله يأمرك أن تُقرئ أمّتك القرآن على حرفٍ واحدٍ» فقال -عليه الصّلاة والسلام-: «أسأل الله معافاته ومغفرته، إنّ أمّتي لا تطيق ذلك»، ثمّ أتاها الثانية... وهكذا إلى الرابعة فقال: «إنّ الله يأمرك أن تُقرئ أمّتك القرآن على سبعة أحرفٍ، فأبما حرف قرؤوا فقد أصابوا»، فهذا الحديث وغيره من الأحاديث التي تدلّ على نزول القراءات تدلّ دلالة قاطعة على أنّه لا فرق بين القرآن والقراءات لأنّ كلّاً منهما وحي منزل على النبي -صلّى الله عليه وسلّم-⁽⁹⁾ إنّ الدّاعي إلى التأمّل في رأي الفريق الثّاني الذي جعل القرآن والقراءات بمعنى واحد، هو أنّه استند إلى حديث الأحرف السبعة الذي لا يكون حجّة في جعل القراءات والأحرف السبعة بمعنى واحد؛ «لأنّ فيه إبطالا أن يكون ترك العمل بشيء من الأحرف السبعة»⁽¹⁰⁾، واستند كذلك إلى أنّ القرآن والقراءة مصدران لفعل واحد (قرأ) ولكنّه في الحقيقة يقف موقفا وسطا بين الرّأيين، «فالواقع أنّهما ليسا متغايرين تغايرا تامّا، كما أنّهما ليسا متّحدَيْنِ اتّحادا حقيقيّا، بل بينهما ارتباط وثيق ارتباط الجزء بالكلّ والله أعلم»⁽¹¹⁾.

ومّا لا اختلاف فيه هو أنّ «القراءات هي تلك الوجوه اللّغويّة والصّوتيّة التي أباح الله بها قراءة القرآن تيسيرا وتخفيفا على العباد»⁽¹²⁾.

لفلظة القراءات توحى إلى أنَّ القرآن له العديد من الطَّرَق ما يتطلَّب من الباحث ضبط ذلك، فهو من المهمَّات له كي لا يخلط بين القراءات وبالتالي الخلط بين العلوم التي تعتمد عليها وتتفرَّع منها. فالقراءات القرآنية آلية من الآليات التي لا بدَّ أن يعتمد عليها اللُّغويِّ والنَّحويِّ والمفسِّر والأصوليُّ كلٌّ حسب تخصُّصه وحاجته إليها.

وبعد عرضنا لمسألة الاختلاف والاتِّفاق بين معنى القرآن والقراءات، نستنتج أنَّ الاختلاف يكون في الجانب الصَّوتيِّ؛ أي كَيْفِيَّة الأداء والنَّطق بكلمات القرآن الكريم، بينما الاتفاق يكون في علاقة كلٍّ منهما بالآخر علاقة الجزء بالكلِّ، فمجموع القراءات هي القرآن الكريم، ولا علاقة بحديث الأحرف السبعة بالقراءات، بل إنَّ القراءات كلُّها هي جزء من الأحرف السبعة التي نزل القرآن بها⁽¹³⁾.

إنَّ اختلاف وجوه القراءات ليس من قبيل الاختلاف على جهة التعارض والتضاد، وإنَّما هو اختلاف تنوُّع له العديد من الفوائد.

3- المصادر: ممَّا تحسن الإشارة إليه هو أنَّ الزَّجَّاج يتَّبِع مذهب أهل السُّنَّة والجماعة، لذا كان اعتماد الآثار له وزنٌ عنده، فالقراءة عنده سُنَّةٌ متَّبعة، مشروطة بالرواية والتَّلَقِّي؛ فنجد أنه لا يعتدُّ برسم المصحف، ولا يلتفت إلى ما خالفه، وينصح بعدم الأخذ به في كثير من الأحيان، كما أنَّه يؤكِّد على عدم الأخذ بالوجه الذي لم ترد فيه رواية صحيحة، وإن لم يخالف رسم المصحف⁽¹⁴⁾، ويظهر هذا جليًّا في كلامه على القراءات، كقوله والقراءة سُنَّة ومخالفتها بدعة، وأمَّا النُّقول التي اعتمدها فهي الأصول ذاتها التي اعتمدها اللُّغويُّون، وهي القرآن الكريم، والحديث النبويِّ الشريف، والشعر العربي.

3-1 القرآن الكريم: اعتمد الزَّجَّاج كثيرا على القرآن الكريم، واعتبره آية من آليات التَّوجيه، وقاعدة من القواعد التي يرجِّح بها قراءة على أخرى، ومنهجه في ذلك كأن تختلف قراءتان في آية فقرأها بعضهم بالضمِّ والبعض الآخر بالفتح، فيرجِّح إحداها على الأخرى ويأتي بنظائرها من القرآن التي تسند ما ذهب إليه ويجعلها دليلا له، كتوجيهه لقراءة النَّصب في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً﴾ [البقرة، 07]، يقول: «والرَّفع في (غشاوة) هو الباب وعليه مذهب القراء، والنَّصب جائز في النَّحو على أنَّ المعنى: (وجعل على أبصارهم غشاوة)، كما قال الله عزَّ وجلَّ في موضع آخر: ﴿وَحَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ [الجاثية، 23]»⁽¹⁵⁾. فاحتجَّ لقراءة النَّصب من القرآن، وهذا الأسلوب غير بعيد عن المفسِّرين.

ومثاله توجيهه لقراءة النَّصب في قوله تعالى: ﴿وَأَرْجُلُكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة، 06]، «وقد قرئت بالخفض، وكلا الوجهين جائز في العربية. فمن قرأ بالنَّصب فالمعنى: فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وأرجلكم إلى الكعبين، وامسحوا برؤوسكم على التقديم والتأخير والواو جائز فيها ذلك كما قال جلّ وعزّ: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران، 43]. والمعنى واركعي واسجدي لأنَّ الرُّكُوع قبل السُّجُود»⁽¹⁶⁾. والشَّاهد في هذا النَّصّ توجيهه لقراءة النَّصب بالقرآن الكريم، وهو حجة بنفسه، والأمثلة على هذا كثيرة وإنَّما أوردت ما أدلّ به على كلامي.

3-2- الحديث النبوي: الاستدلال بالحديث النبويّ في مسائل التَّحو والتَّععيد من الأمور التي وقع فيها الخلاف، فذهب البصريّون إلى ردّ هذا النوع من الشُّواهد؛ بحجة أنّ جلّ الأحاديث منقولة بالمعنى، ومروية من طرف المولدين⁽¹⁷⁾، بخلاف الكوفيّين الذين اشتهروا بحفظ الغرائب من اللّغات، والعمل على ما حفظوه، لذلك اتَّسعت آراؤهم، وكثرت رواياتهم.

ولكن هذا لا يمنع من أنّ بعض البصريّين المتأخّرين استشهدوا بالحديث الشَّريف في بعض المسائل، كابن مالك (ت: 672هـ)، وصاحبنا الرّجّاج الذي نجده يعتمد على الحديث في ردّ قراءة جرّ (الأرحام) في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء، 01] قائلا: «القراءة الجيدة نصب الأرحام. المعنى واتقوا الأرحام أن تقطعوها، فأما الجرّ في الأرحام فخطأ في العربية لا يجوز إلّا في اضطرار الشعر^(*)، وخطأ أيضا في أمر الدّين عظيم؛ لأنّ النّبيّ -صلى الله عليه وسلّم- قال لا تحلفوا بأبائكم. فكيف يكون تساءلون به وبالرحم على ذاك؟»⁽¹⁸⁾. ثم أضاف: «رأيت أبا إسحاق إسماعيل بن إسحاق يذهب إلى أنّ الحلف بغير الله أمر عظيم، وأنّ ذلك خاصّ لله -عزّ وجلّ- على ما أتت به الرواية»⁽¹⁹⁾، فاختار قراءة النَّصب على قراءة الجرّ أخذًا بهذه الرواية.

3-3- العنوان الفرعي الثاني: الشعر له دوره البارز في الاحتجاج لدى علماء اللّغة، لذا نجد أنّ الرّجّاج أولاه جانباً من الاهتمام، مكثرا منه في كتابه هذا، ومستشهدا به في المجالات اللّغويّة المختلفة من بنية وتركيب ودلالة، وسأضرب لكلّ مجال من هذه المجالات بمثال.

3-3-1- البنية: استشهد بيت لبّيد بن ربيعة على أنّ (سَقَى) و(أَسَقَى) بمعنى واحد بالرّغم من اختلاف اللّفظين في البنية، في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِصُكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ [النحل، 66].

سَقَى قَوْمِي بَنِي مَجْدٍ وَسَقَى مُنِيرًا وَالْقَبَائِلَ مِنْ هِلَالٍ⁽²⁰⁾.

3-3-2- التركيب: وكذلك استشهد بالشعر العربي في كثيرٍ من التراكيب اللغويّة التي تستدعي شيئاً من التأمل والتأويل، ومثالها توجيهه لقراءة (الصّابئون) بالرفع في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة، 69].

فقد أورد الباحثون أوجها إعرابيّة للآية⁽²¹⁾ نذكرها باقتضاب:

- 1- الواو استثنائيّة، والصّابئون رفع على الابتداء وخبره محذوف، والنّية به التأخير عمّا في حيّز "إنّ" من اسمها وخبرها. والتّقدير: إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والنّصارى حكمهم كذا، والصّابئون كذلك. وهذا ما رجّحه سيبويه، وأنشد قول الشّاعر⁽²²⁾: **وَالْأَفَاعِلُ مَا بَقِينَا عَلَى شِقَاقِ.**
- 2- الواو عاطفة، والصّابئون معطوفة على موضع اسم إنّ لأنّه قبل دخول "إنّ" كان في موضع رفع، وهذا مذهب الكسائي والفراء.

3- الصّابئون مرفوع عطفا على الواو في (هادوا)، وزوي هذا عن الكسائي.

4- أن تكون "إنّ" بمعنى نعم، وما بعدها مرفوع بالابتداء، فيكون "الصّابئون" معطوفا على ما قبله.

والزّجاج كسبويه رجّح القول الأوّل مستشهدا بما ورد من كلام العرب.

3-3-3- الدّلالة: استشهد الزّجاج بالشعر على كثيرٍ من المسائل الدّلاليّة، خاصّة تلك التي تتحمّل أوجهاً متعدّدة، منها تأويله لـ: (إلّا) بـ: (غير) في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22]، فيقول: «و"إلّا" في معنى "غير"، المعنى لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا، ف"إلّا" صفة في معنى غير، فلذلك ارتفع ما بعدها على لفظ الذي قبلها قال الشّاعر:

وَكُلُّ أَخٍ مُفَارِقُهُ أَخُوهُ لَعَمْرُ أَبِيكَ إِلَّا الْفَرَقْدَانِ⁽²³⁾

المعنى وكلّ أخ غير الفرقدين مفارقة أخوه»⁽²⁴⁾.

وأكتفي بما أوردته من شواهد ليكون بيانا على ما قلّته من اعتماد الزّجاج على النّقل في توجيه القراءات القرآنيّة، ثمّ أشرع في ذكر ما تعلّق بالجانب الثّاني من المصادر.

4. المصادر العقليّة: سبق وأن ذكرنا أنّ الزّجاج يعتمد على الأدلّة النّقليّة في توجيه القراءات القرآنيّة، إلّا أنّ هذا لا يمنعه في كثيرٍ من المواضع أن يتوجّه إلى القياس وإعمال العقل، خاصّة إذا انعدمت الأدلّة النّقليّة،

والمقصود بالأدلة العقلية ههنا: القواعد والأصول التي وضعها علماء اللغة (صوتا، صرفا، تركيبا، وحتى دلالة)، وإعمال العقل فيها للوصول إلى تحليلها أولا، ثم استنباط الدلالات ثانيا.

وللتدليل على ذلك مثلت بأمثلة اخترتها من كتابه، فمثلت للمستوى الصوتي بالإدغام والإشمام، ومثلت للمستوى الصرفي بالإعلال والإبدال، أما ما يخص المستوى التركيبي (النحوي) فمثلت له بالإسناد ووقفت على مسألة عطف الظاهر المرفوع على المضمَر، وفيما يلي بيان لذلك.

4-1-1- المستوى الصوتي:

4-1-1- الإدغام: يعتبر الإدغام في الدراسات الصوتية الحديثة نوعا من المماثلة الصوتية⁽²⁵⁾ إذ هو:

«نزعة صوتين إلى التماثل أي الاتصاف بصفات مشتركة تسهل اندماج أحدهما في الآخر، ويقع ذلك خاصة في الحروف المتقاربة المخارج»⁽²⁶⁾، وهو ذو أهمية بالغة كونه متعلقا بقانون الاقتصاد اللغوي، والتيسير في النطق، لذلك اهتم به اللغويون قديما وحديثا، وتعرض له الزجاج في كتابه كثيرا.

ففي قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [النساء، 58] ذكر الزجاج ثلاثة أوجه، وهي:

- 1- (نِعِمَّا) بكسر التّون والعين وإدغام الميم في الميم.
- 2- (نِعِمَّا) بفتح التّون وكسر العين وإدغام الميم في الميم.
- 3- (نِعِمَّا) بكسر التّون وإسكان العين والميم⁽²⁷⁾، غير أنه رجّح الوجه الأول، واستبعد الوجه الثالث بحجة اجتماع الساكنين، ومشقة النطق⁽²⁸⁾، ولم يقل شيئا عن الوجه الثاني وكأته استحسنة؛ لأنه لم ير مانعا في فتح التّون.

هذا في حالة دخولها على منكر (ما)، أما في حالة دخولها على معرف ففيها أربع لغات، قال أبو إسحاق: «وفي نِعَمَ الرجل أربع لغات: نِعَمَ الرجل زيد، ونِعَمَ الرجل زيد، ونِعَمَ الرجل زيد»⁽²⁹⁾.

فلو أخذنا الوجه الذي اختاره الزجاج وحللناه صوتيا، يحصل ما يلي:

الظاهرة الصوتية	الكتابة الصوتية	التعليل الصوتي
-----------------	-----------------	----------------

نِعْمًا	ص ح / ص ح ص / ص ح ح	حالة الكلمة بعد حدوث التّغيرات الصّوتية.
نِعْمَ مَا	ص ح ص / ص ح / ص ح ح	أصل الكلمة قبل حدوث التّغيرات الصّوتية.
نِعْمَ مَا	ص ح ص ص / ص ح ح	تسكين الميم الأولى حتّى يصحّ الإدغام، وإن كان جائزًا إدغام المتحرّكين.
نِعْمًا	ص ح ص ص / ص ح ح	اجتمع ساكنان بعد إدغام الميمين فيتعيّن حينئذ خمسة احتمالات، وهي:
نِمًّا	ص ح ص / ص ح ح	<u>الاحتمال الأوّل</u> : حذف الأوّل، فتصبح الكلمة: نِمًّا لا معنى لها.
نِعْمًا	ص ح ص / ص ح ح	<u>الاحتمال الثّاني</u> : حذف الثّاني؛ (حذف ميم نِعْم بعد الإدغام)، تصبح الكلمة نِعْمًا، ونكون بهذا قد حذفنا أصلا من أصول الكلمة، وهذا لا يجوز لغةً.
نِعْمَ مَا	ص ح ص / ص ح / ص ح ح	<u>الاحتمال الثّالث</u> : نحرك الثّاني، فترجع الكلمة إلى أصلها، فتسقط حينئذ مقصدية المتكّلة (التّخفيف).
نِعْمًا	ص ح ص ص / ص ح ح	<u>الاحتمال الرّابع</u> : نتحمّل التّقاء السّاكنين، وهذا وجه من أوجه القراءة في الآية؛ بمعنى يصحّ ذلك عند غير البصريّين، كما نصّ على ذلك الزّجاج، ولكن من منظور النّظام الصّوتي لا يجوز؛ لأنّ المقطع (ص ح ص ص) لا يمكن أن يكون إلّا في آخر الكلمة في حالة الوقف.
نِعْمًا	ص ح / ص ح ص / ص ح ح	<u>الاحتمال الرّابع</u> : وهو الذي اختاره الزّجاج نحرك الأوّل؛ (العين) دون المساس بأوّل الكلمة.

4-1-2- الإشمام: الإشمام هو: «ضُمَّكَ شفتيك بُعيد سكون الحرف بدون صوت فلا يُدرك إلّا

بالبصر، أي أنّه يُرى ولا يُسمع»⁽³⁰⁾. وهو من الظواهر الصّوتية الغامضة، وذلك لتداخله مع الإمالة من جهة،

ولتعلّقه بالسمع والبصر معًا من جهة أخرى؛ إذ هناك نوعان من الإشمام، أوْلُهُما: خلط حرف بحرف كما في

(الصراط) بحيث يمزج صوت الصاد بالزاي. وثانيهما: خلط حرف بحرف، وهو نوعان كذلك، الأول: كما في (قيل) وكيفيته أن ينطق بحركة مركبة من حركتين ضمة فكسرة وجزء الضمة مقدّم وهو الأقلّ ثم يليه جزء الكسرة وهو الأكثر. والثاني: ضمّ الشفتين مصاحبا لإسكان الحرف بدون صوت لذلك الضمّ⁽³¹⁾ كما في لفظ (تأمتا) و(سيء) عند من قرأ بالإشمام.

وقد تطرّق الزّجاج إلى هذه الظاهرة لكنّه لم يستطرد فيها كثيرا، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يُوقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾ [الأنعام، 28].

يقول الزّجاج عن الإمالة في ألف (النار): «القراءة أكثرها بالفتح والتّفخيم، والإمالة حسنة جيّدة، وهي مذهب أبي عمرو. أعني كسر الألف من "النار"، وإنما حسنت الإمالة في قوله: ﴿كَمَثَلِ الْخِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة، 05]، وأصحاب النار، لأنّ الزّاء بعد الألف مكسورة، وهي حرف كأنّه مكرّر في اللسان، فصارت الكسرة فيه كالكسرتين»⁽³²⁾، وهذه إشارة إلى سبب الإمالة، وهو المشاكلة التي تعني تقريب صوت من صوت آخر، وهي أنواع، وهذا النوع من المشاكلة يسمّى بالتهيهو⁽³³⁾.

4-2- المستوى الصّرفي:

من بين المباحث التي تناولها الزّجاج الإعلال والإبدال؛ حيث يعتبران من المميّزات والخصائص التي تميّز بها البنية العربيّة، وهما متقاربان إلّا أنّ الإعلال يختصّ بحروف العلة والهمزة، والإبدال يمسّ الحروف الصّحاح، ومنه فالإبدال أعمّ وأوسع من الإعلال.

فمن أمثلة الإعلال قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ أَحْمَمَا﴾ [الأعراف، 19]. يقول الزّجاج في "وُورِي": «يجوز فيه أُورِي، لأنّ الواو مضمومة، وإن شئت أبدلت منها همزة، إلّا أنّ القراءة تُتبع في ذلك. والقراءة وخطّ المصحف "وُورِي" بالواو»⁽³⁴⁾. فجوز الإعلال بين الهمزة والواو في غير القرآن.

ومن أمثلة الإبدال ما رواه بين الكاف والقاف في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير، 11]، إذ قال: «يقال: كُشِطْتُ السَّقْفُ وقُشِطْتُ السَّقْفُ بمعنى واحد، والقاف والكاف تُبدل إحداها من الأخرى كثيرا»⁽³⁵⁾، والمسوّغ لهذا الإبدال هو تقارب الصّوتين في المخرج، فضلا عن كونهما مشتركين في الصّفة.

4-3- المستوى النحوي: ممّا اعتنى به الزّجاج في كتابه الجانب التركيبي في شقيه العمدة (الإسناد)، ففي

الابتداء بالوصف النكرة في قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ [الرعد: 10]: ذكر أنّ

"سواء" في الآية مبتدأ واسم الموصول بعدها "مَنْ" خبر، و"سواء" هنا مصدر تحتاج إلى مرفوع مثلها مثل اسم الفاعل، فيجوز أن يجلّ محلّها "مُسْتَوٍ"، اسم الفاعل من "استوى"، غير أنّه يستدرك قائلا: «إلا أنّ سيّويه يستقبح ذلك، لا يميز مستوٍ زيدٍ وعمرو، لأنّ أسماء الفاعلين عنده إذا كانت نكرة لا يبتدأ بها لضعفها عن الفعل فلا يُبتدأ بها، ويجريها مجرى الفعل»⁽³⁶⁾. ومنع أن ترفع "قَرَّت" (***) على الابتداء في قوله تعالى: ﴿قَرَّتْ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص، 09]، يقول: «رفع قرّة على إضمار "هو" قرّة عين لي ولك. وهذا وقف التمام. ويقبح رفعه على الابتداء، وإن يكون الخبر لا تقتلوه، فيكون كأنّه قد عرف أنّه قرّة عين له»⁽³⁷⁾.

يفهم من كلام الزّجاج أنّ "قرّة" خبر محذوف. والتّقدير "هو قرّة" فأما أن يرفع "قرّة" على الابتداء وجملته "لا تقتلوه" خبر. فهذا قبيح؛ لأنّه يجعل قرّة تامّة الإفادة بإضافة عين إليها. وهذا لم يحصل إلّا أن يتأوّل «على بعد، على معنى إذا كان قرّة عين لي ولك فلا تقتلوه»⁽³⁸⁾، وهذا يدلّ على قدرة الزّجاج على توجيه القراءات بناءً على معاني النّحو ومعطياته، وهو الأصل في الدّلالة النّحويّة.

أمّا فيما يخصّ مسألة عطف الظّاهر المرفوع على المضمر في قول الله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ [يونس، 71]، فذهب إلى تغليب من قال بتقدير عامل محذوف في "شركاءكم" قائلا: «زعم القراء أنّ معناه: فأجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم. وهذا غلط لأنّ الكلام لا فائدة فيه، لأنّهم إن كانوا يدعون شركاءهم لأنّ يجمعوا أمرهم، فالمعنى فأجمعوا أمركم مع شركائكم»⁽³⁹⁾، فجعل الواو هنا للمعيّة، كقولهم: «لو تُركت الناقّة وفصيلها لرضعها، والمعنى: لو تُركت مع فصيلها لرضعها»⁽⁴⁰⁾. تماما مثلما فعل شيخه المبرّد في الكامل في تخرّيج هذه الآية: «وهو الأجود فيها، وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾، فالمعنى والله أعلم: مع شركائكم»⁽⁴¹⁾، ويذكر في موضع آخر من الكتاب نفسه: «وأجود التّفسير عندنا في قول الله جلّ وعزّ: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾، أن تكون الواو في معنى "مع"»⁽⁴²⁾، ثمّ يذكر وجها آخر في توجيه الآية قائلا: «وقوم ينصبونه على دخوله بالشّركة في معنى الأول، فيجعلونه كقول القائل: يَا لَيْتَ زَوْجِكَ قَدْ غَدَا مُتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرُمْحًا»⁽⁴³⁾.

4. خاتمة:

وختاماً، فإنّ كلّ دراسة علميّة رسيّنة لا بدّ وأنّ صاحبها استند إلى مصادر أصيلة جعلها ينبوع عمله، وهذا منهج قويّ في البحث العلميّ، خاصّة عندما تتنوّع المصادر كما رأينا مع الزّجاج الذي كان آيَةً في الإحاطة بكلّ ما يتعلّق بالنّصّ القرآنيّ من قراءات قرآنيّة، وروايات نبويّة وشعريّة، كما كان له اطلاع واسع على الفرق والمذاهب الفقهيّة، والمدارس اللّغويّة، كانت له نعم السّند لأنّ يتبنّى تلك المكانة العلميّة.

فتميّزت دراسته بالجمع بين (العقل والتّقل)، وهذا ما يدلّ على الاتّساق والانسجام في منهجه، فجاءت متناسقة متكاملة، لأنّ الاختصار على جانب دون الآخر يؤدّي إلى قصور في الدّراسة.

5. الهوامش:

- 1- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، مج 1، ص: 128-129.
- 2- محمد عبد الله دّاز: التّبّ العظيم نظرات جديدة في القرآن، دار الثقافة، الدوحة، قطر، د.ط، 1985م-1405هـ، ص: 12.
- 3- محمد عبد الله الزّرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، تح: فوز أحمد زمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 1995م-1415هـ، ج 1، ص: 21.
- 4- الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تح: مجدي فتحي السيّد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، د.ط، د.ت، ج 1، ص: 38-39.
- 5- ينظر: خالد عبد الرحمن العك، أصول التفسير وقواعده، دار التفائس، بيروت، لبنان، ط 2، 1986م-1406هـ، ص: 429.
- 6- الألوسي (أبو الفضل شهاب الدين السيّد محمود البغدادي)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط 2، د.ت، ج 25، ص: 92.
- 7- ينظر: المرجع السابق، ص: 429.
- 8- شهاب الدّين الدّميّاطي، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، تح: الشيخ أنس مهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1998م-1419هـ، ص: 07.
- 9- ينظر: محمد سالم محيسن: القول الشديد في الدّفاع عن قراءات القرآن المجيد، دار محيسن للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط 1، 2002م-1423هـ، ص: 7-8.
- 10- ينظر: مكّي بن أبي طالب القيسي، الإبانة عن معنى القراءات، تح: عبد الفتّاح إسماعيل شلي، دار تحضة مصر، القاهرة، مصر، د.ط، د.ت، ص: 36.
- 11- شعبان إسماعيل، القراءات، أحكامها ومصادرها، مطابع رابطة العالم الإسلامي، مكّة، ط 2، 1414هـ، ص: 25.
- 12- محمد سعيد اللّبدّي، أثر القرآن والقراءات في النّحو العربي، دار الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، ص: 309.
- 13- ينظر: مكّي بن أبي طالب القيسي، الإبانة عن معنى القراءات، ص: 32.
- 14- ينظر: الرّجّاج (أبو إسحاق إبراهيم بن السّري)، معاني القرآن وإعرابه، تح: عبد الجليل عبده شلي، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط 1، 1408هـ-1988م، ج 1، ص: 45.
- 15- المصدر نفسه، ج 1، ص: 84.
- 16- المصدر نفسه، ج 2، 152-153.
- 17- ينظر: السيوطي، الاقتراح في علم أصول النّحو، تعليق: محمود سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1426هـ-2006م، ص: 89-90.
- * - فَأَلْيَوْمَ قَرَرْتُ تَهْجُونَا وَتَشْتُمُنَا *** فَأَذْهَبَ فَمَا بِكَ وَالْأَيَّامُ مِنْ عَجَبٍ، البيت للأعشى، وينسب لعمر بن معد يكرب، ولخفاف بن ندبة، ولغيرهم، وهو من شواهد سيبويه الخمسين مجهولة القائل، ينظر: المبرد، الكامل، تح: محمد أحمد الدّالي، مؤسسة الرسالة، د.ط، د.ت، مج 2، ص: 931.
- 18- الرّجّاج، إعراب القرآن وبيانه، ج 1، ص: 06.
- 19- المصدر نفسه، ج 1، ص: 06.
- 20- المصدر نفسه، ج 3، ص: 209.
- 21- ينظر: محي الدين درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، دار ابن كثير، دمشق، سوريا، ط 7، 1420هـ-1999م، ج 2، ص: 270.
- 22- هو بشر بن أبي حازم، وهو من شواهد الكشّاف للزّحشري، ينظر: الزّحشري، الكشّاف عن غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوّض، مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية، ط 1، 1418هـ-1998م، ج 2، ص: 273.

- 23- البيت لعمر بن معد يكرب الزبيدي، وقيل لغيره.
- 24- المصدر نفسه، ج3، ص: 388.
- 25- ينظر: عبد الصَّبور شاهين، المنهج الصَّوتي للبنية العربية رؤية جديدة في الصَّرف العربي، مؤسسة الرِّسالة، بيروت، لبنان، د.ط، 1400هـ-1980م، ص: 209.
- 26- الطيب البكوش، التَّصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، المطبعة العربية، تونس، ط3، 1992م، ص: 67.
- 27- ينظر: الزَّجَّاج، معاني القرآن وإعرابه، ج2، ص: 67.
- 28- ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص: 67.
- 29- المصدر نفسه، ج1، ص: 172.
- 30- أحمد محمود عبد السَّميع الحفيان، أشهر المصطلحات في فن الأداء وعلم القراءات ويليه متن الدَّرة المضيئة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ-2001م، ص: 177.
- 31- ينظر: المرجع نفسه، ص: 177-178.
- 32- الزَّجَّاج، معاني القرآن وإعرابه، ج2، ص: 239.
- 33- ينظر: عبد الفتاح إسماعيل شلي، في الدراسات القرآنية واللغوية الإمامة في القراءات والأهجات العربيَّة، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، د ط، د ت، ص: 327.
- 34- المصدر السابق، ج2، ص: 328.
- 35- المصدر نفسه، ج5، ص: 291.
- 36- المصدر نفسه، ج3، ص: 141.
- **- هكذا وردت في المصاحف بناءً مفتوحة، وهذا من غريب الرِّسم في القرآن الكريم، وهو توقيفي.
- 37- المصدر نفسه، ج4، ص: 133.
- 38- المصدر نفسه، ج4، ص: 133.
- 39- المصدر نفسه، ج3، ص: 27-28.
- 40- المصدر نفسه، ج3، ص: 28.
- 41- المبرد، الكامل، مج 2، ص: 432.
- 42- المرجع نفسه، مج 3، ص: 836.
- 43- المرجع نفسه، مج 3، ص: 836.

6. قائمة المراجع:

1. أحمد محمود عبد السَّميع الحفيان، أشهر المصطلحات في فن الأداء وعلم القراءات ويليه متن الدَّرة المضيئة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ-2001م.
2. الألوسي (أبو الفضل شهاب الدين السيِّد محمود البغدادي)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسَّبْع المثاني، دار إحياء الثَّرات العربي، بيروت، لبنان، ط2، د ت.
3. خالد عبد الرحمن العك، أصول التفسير وقواعده، دار النَّفائس، بيروت، لبنان، ط2، 1986م-1406هـ.
4. الزَّجَّاج (أبو إسحاق إبراهيم بن السَّري)، معاني القرآن وإعرابه، تح: عبد الجليل عبده شلي، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط1، 1408هـ-1988م.

5. الزّخشي، الكشّاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوّض، مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية، ط1، 1418هـ - 1998م، ج2.
6. السيوطي، الاقتراح في علم أصول النّحو، تعليق: محمود سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1426هـ - 2006م.
7. شعبان إسماعيل، القراءات، أحكامها ومصادرها، مطابع رابطة العالم الإسلامي، مكّة، ط2، 1414هـ.
8. شهاب الدّين الدّميّاطي، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، تح: الشيخ أنس مهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998م - 1419هـ.
9. الطّيب البكوش، التّصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، المطبعة العربية، تونس، ط3، 1992م.
10. عبد الصّبور شاهين، المنهج الصّوتي للبنية العربية رؤية جديدة في الصّرف العربي، مؤسسة الرّسالة، بيروت، لبنان، د ط، 1400هـ - 1980م.
11. عبد الفتاح إسماعيل شلبي، في الدراسات القرآنية واللّغوية الإمالة في القراءات واللّهجات العربيّة، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، د ط، د ت.
12. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تح: مجدي فتحي السيّد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، د ط، د ت.
13. المبرد، الكامل، تح: الدكتور محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط3، 1418هـ - 1997م.
14. محمّد سالم محيسن، القول السّديد في الدّفاع عن قراءات القرآن المجيد، دار محيسن للطباعة والنّشر والتّوزيع، مصر، ط1، 2002م - 1423هـ.
15. محمّد سعيد اللّبدي، أثر القرآن والقراءات في النّحو العربي، دار الكتب الثّقافية، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.
16. محمّد عبد الله الرّزقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، تح: فوز أحمد زمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1995م - 1415هـ.
17. محمّد عبد الله درّاز، التّبّاء العظيم نظرات جديدة في القرآن، دار الثّقافة، الدوحة، قطر، د.ط، 1985م - 1405هـ.
18. محي الدّين درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، دار ابن كثير، دمشق، سوريا، ط7، 1420هـ - 1999م.
19. مكّي بن أبي طالب القيسي، الإبانة عن معنى القراءات، تح: عبد الفتّاح إسماعيل شلبي، دار نخضة مصر، القاهرة، مصر، د.ط، د.ت.
20. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.